

## التشبيه في القرآن

للإمام أحمد بن أحمد بن عبد بن

-----

- ٥ -

ويهدف التشبيه في القرآن إلى ما يهدف إليه كل فن بلاغي فيه ، من التأثير في الماطفة ، فترب أو ترهب ، ومن أجل هذا كان للمناقضين والكافرين والشركيين نصيب وافر من التشبيه الذي يزيد نفسيهم وضوحاً ، ويصور وقع الدعوة على قلوبهم ، وما كانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور والإعراض .

يصور لنا حالهم وقد استمعوا إلى دعوة الداعي ، فلم تثر فيهم تلك الدعوة رغبة في التفكير فيها لمعرفة ما قد تنطوي عليه من صدق ، وما قد يكون فيها من سواب ، بل يحول بينهم وبين ذلك الكبر والأنفة ، وما أشبههم حينئذ بالرجل لم يسمع عن الدعوة شيئاً ، ولم يطرق أذنه عنها نبأ ، بل ما أشبههم بمن في أذنه صم ، فهو لا يسمع شيئاً مما يدور حوله ، وبمن أصيب باليسم ، فهو لا ينطق بصواب اهتدى إليه ، وبمن أصيب بالعمى فهو لا يرى الحق الواضح ، وبذلك شبههم القرآن ، فقال : « ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً ، كأن لم يسمعها ، كأن في أذنيه وقراً ، فبشره بمذاب أليم » وقال : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى ، فعم لا يفلحون » .

أما ما يشعرون به عند ما يسمعون دعوة الحق فضيق بلاء صدرهم ، ويشودم حله ، كهذا الضيق الذي يشعر به الصمد في جبل ، فهو يجرف نفسه ويلهت من التعب والناء ، وهكذا صور الله ضيق صدرهم بقوله : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، كأنما يصمد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » وما دام هؤلاء القوم لا يستخدمون عقولهم فيما خلقت له ، ولم تصغ آذانهم إصغاء من يسمع ليتدبر ، فقد وجد القرآن في الأنعام شيئاً لهم يقربهم بها ، ويمتد بينهم وبينها وثيق

الصلوات ، فقال : « ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ، وأنت ترى في هذا التشبيه كيف مهد له التمهيد الصالح ، فجعل لهم قلوباً لا يفقهون بها ، وأعيناً لا يبصرون بها ، وآذاناً لا يسمعون بها . ألا ترى نفسك بمدت مسوقاً إلى إزالمهم منزلة البهائم ، فإذا ورد هذا التشبيه عليك ، وجد في قلبك مكاناً ولم تجد فيه بعداً ولا غرابة ، بل ينزل بهم حيناً عن درجة الأنعام فيراهم خشياً مسندة .

وحيثما يريد أن يصورهم ، وقد جدوا في الحرب والنفرة من تلك الدعوة الجديدة فيقول : « فالهم عن التذكرة مرضين ، كأنهم بحر مستنفرة ، فرت من قسورة » ، وقد تحدثنا عن هذا التشبيه فيما مضى .

أما هذا الذي آمن ثم كفر وانسلخ عن الإيمان واتبع هواه فقد عاش مثال الذلة والهوان ، وقد وجد القرآن في الكلب شيئاً يبين عن خسته وحقارته ، وبما يزيد في الصلة بين الاثنين أن هذا النسلخ بظل غير مطمئن القلب ، مزعزع العقيدة مضطرب الفؤاد ، سواء أدهوته إلى الإيمان ، أم أهلت أمره ، كالكلب يظال لاهثاً ، طردته وزجرته ، أم تركته وأهملته ، قل : « واتل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها ، فأنتمعه الشيطان ، فكان من الفارسين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

ولم ينس القرآن تصور حيوتهم ، واضطراب نفسيهم ولمح في اضطرابهم صلة بينهم وبين من استوقد ناراً ثم ذهب الله بنوره ، وبين المائر تحت صيب منهم فيه ظلمات ورعد وبرق .

وصور وهن ما يعتمد عليه من يتخذ من دون الله أولياء بهن بيت المكبوت ، وخين أراد أن يتحدث عن أن هؤلاء الأولياء لن يستفيد منهم طاب وهم بشيء ، رأى في هذا الذي يبسط كفه إلى الماء ، يريد وهو على تلك الحال أن ينقل الماء إلى فيه ، وما هو ببالفه شيئاً لهم فقال : « له دعوة الحق ،

من الساعة إيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك  
منهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا  
عشية أو ضحاها .

ها هم أولاء قد بعثوا خارجين من أجدانهم في كثرة لا تدرك  
العين مداها ، وماذا يستطيع أن يرسم لك تلك الصورة ، تدل  
على الغزارة والحركة والانبعثات ، أفضل من هذا التشبيه الذي  
أورده القرآن حين قال : « خشما أبصارهم ، يخرجون من الأجداث  
كأنهم جراد منتشر ، مهطئين إلى الداع يقول الكافرون هذا  
يوم عسر » . وحينما يصورهم ضمنا يتهافتون مسرعين إلى الداعي  
كي يجاسبهم فيجد في الفراش صورهم ، فيقول : « القارعة  
ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش  
المبثوث » . ولا إخال أحدا لم ير الفراش يسرع إلى الضوء ،  
ويتهافت عليه في ضعف وإلحاف مما ، ولقد تناول القرآن أسراعهم  
مرة أخرى ، فشيهم بهؤلاء الذين كانوا يسرعون في خطوهم ،  
ايمدوا أنصبا مقامه ، وتماثيل منحوتة ، كانوا متحمسين في  
عبادتها ، يقبلون عليها في رغبة واشتياق فيقول « يوم يخرجون  
من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون » .

ويتناول المجرمين ، فيصور ما سوف يجذونه يومئذ من ذلة  
وخزي ، ويرسم وجوههم وقد علنها الكآبة : « كأنما أغشيت  
وجوههم قطما من الليل مظلماً ، أولئك أصحاب النار هم فيها  
خالدون » . أما طعامهم فن شجرة الرقوم يتناولونها فيحسون  
بيران تحرق أمهاتهم فكأنما طعموا نحاساً ذائبا أو زيتا ملتما ،  
وإذا ما استند بهم الظمأ واستغاثوا قدمت إليهم مياه كهذا  
النحاس والزيت تشوى وجوههم . قال تعالى : « إن شجرة الرقوم  
طعام الأئيم كالمهل يفل في البطون كغلي الحميم » وقال سبحانه :  
« وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه » ألا ترى  
التشبيه بشير في النفس خوفا وانزعاجا ؟

ويصور آكل الربا يوم القيامة صورة منفرة منه ، مزرية به ،  
فهل رأيت ذلك الذي أصابه مس من الشيطان فهو لا ينهض واقفا  
حتى يسقط ، ولا يقوم إلا ليقع ، ذلك مثل آكل الربا « الذين  
يا كلون الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان  
من المس » ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا .

والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كياسط  
كفيه إلى السماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالفه ، وما دعاء الكافرين  
إلا في ضلال » .

وتعرض لأعمال الكفرة كما سبق ان ذكرنا ولصدقاتهم التي  
كان جديراً بها أن تثمر وتزهر ، ويفيدوا منها لولا أن هبت عليهم  
ريح الشرك فأبادتها ، كآهب الريح الشديدة البرد بزرع كانت  
ينتظر إثماره فأهلكته : « مثل ما ينفثون في هذه الحياة الدنيا  
كمثل ريح ، فما صر ، أصابت حرث قوم ظلوا أنفسهم فأهلكته ،  
وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون » .

وهناك طائفة من التشبيهات ترتبط بيوم القيامة لجأ إليها  
القرآن للتصوير والتأثير معاً ، فإذا أراد القرآن أن يبين قدرة الله  
على أن يأتي بذلك اليوم ، بأسرع مما يتصور المتصورون لجأ إلى  
أسرع مما يراه الرأي ، فآخذ مثلا يؤدي إلى المهسد المراد ،  
فيقول : « والله غيب السموات والأرض ، وما أمر الساعة إلا  
كلح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شيء قدير »

ويقرب أمر البعث إلى الأذهان بتوجيه النظر إلى بدء خلق  
الانسان ، وأن هذا البعث صورة من هذا البدء فيقول : « كما  
بدأكم تمودون » وتوجيه النظر إلى هذا السحاب الثقال يسوقه  
الله لبلد ميت ، حتى إذا نزل ماؤه دبت الحياة في أوصال الأرض  
خرج الثمر منها يانما ، وهكذا يخلق الله الحياة في الموتى ، قال  
سبحانه : وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، حتى  
إذا أقلت سحابا ثقلا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ،  
فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون »

وإذا جاء يوم القيامة استيقظ الناس لا يشمرون بأنه قدمضى  
عليهم حين من الدهر طويل منذ فارقوا حياتهم ، ويورد القرآن  
من التشبيه ما يصور هذه الحالة النفسية العجيبة ، فيقول « ويوم  
نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ، قد  
خسر الذين كذبوا بقاء الله ، وما كانوا مهتدين » ، وإذا نظرت  
إلى قوة التشبيه مقترنة بقوله : يتعارفون بينهم ، أدركت مدى  
ما يستطيع أن يحدته في النفس من أثر . وقد كور هذا المعنى في  
موضع آخر يريد أن يشبعه في النفس ويؤكد فقل : « يسألونك

الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أأنها أمرنا ليلاً أو نهارة فجعلنا حميماً كأن لم تنف بالأمس، كذلك نفعل الآيات لقوم يفتكرون .

ولما كان المال أثره في الحياة الاجتماعية لعب التشبيه دوره في التأثير في النفس كي تسمح ببذله في سبيل تخفيف أعباء المجتمع، فقرر مضاعفة الثواب على ما يبذل في هذه الناحية فقال في موضع « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها وابل فقل والله بما تعملون بصير . » . فلهذا التشبيه أثره في دفع النفس إلى بذل المال راضية منتبطة، كما يفتبط من له جنة قد استقرت على مرتفع من الأرض تراوى بها في حاجة إليه من ماء المطر وتترك ما زاد عن حاجتها، فلا يظل بها الماء حتى يتلفها كما يستقر في المنخفضات، فجاءت الجنة بثمرها مضاعفاً . وفي مرة أخرى رأى مضاعفة جزاء الحسنات كضاعفة الثمرة لهذا الذي يبذر حبة قمح فتخرج عوداً يحمل سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، كمثل حبة أنبت سبع سنابل، في كل سنبله مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم . » . وحاط القرآن هذه المضاعفة بشرط ألا يكون الإنفاق عن رياء . وهنا نقف أمام هذا التشبيه القرآني الذي سبق تصوير المن يتصدق لا عن باعته نفسى، تعيين إيماءاته، وتخلص وجه اختياره، إذ يقول سبحانه : « بأيتها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالأن والأذى، كالأذى ينفق ماله رياء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فقله كمثل صفوان عليه تراب، فأصابه وابل، فتركه صلداً، لا يقدر على شيء مما كسبوا، والله لا يهدي القوم الكافرين، » . رأيت هذا الحجر الصلد قد فطنته قشرة رقيقة من التراب نخاله الرائي صالحاً للزرع والإنبات، ولكن وابل المطر لم يلبث أن أزال هذه القشرة فبدا الحجر على حقيقته صلداً لا يستطيع أحد أن يجد فيه موضع خصب ولا تربة صالحة للزراعة ؟ ألا ترى في اختيار كلمة الصفوان هنا ما

ولعب التشبيه دوراً في تصوير يوم القيامة، وما فيه من الجنة والنار، ففي ذلك الحين، تفقد الجبال أعاسكها، وتكون « كالمهن المنفوش » وتفقد السماء نظام جاذبيتها، فتشق، ويصبح الجو ذالون أحر كالورد : « فإذا انشقت السماء، فكانت وردة كالدهان » ، وأما جهنم فضخامتها وقوة لها بما لا يستطيع العقل تصوره، وبما لا يمكن أن تنفس إليها تلك النيران التي نشاهدها في حياتنا، وحسبك أن تعلم أن شررها ليس كهذا الشر الذي يشبه الهباء اليسيرة، وإنما هو شرر ضخمة ضخمة غير معهودة، وهنا يسهف التشبيه، فيمد الخيال بالصورة، حين يجعل لك هذا الشرر كأنه أشجار ضخمة تنهاوى، أو جمال صفر تتساقط، « إنها ترى بشر كالفصر كأنه جملة صفر » . وأما الجنة ففي سعة لا يدرك العقل مداها، ولا يستطيع التمييز أن يحدها، أو يعرف منتهائها، ويأتي التشبيه ممدداً في الخيال، كي يسبح ما يشاء أن يسبح فيقول : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » .

وهكذا ترى التشبيه يعمل على تمثيل الغائب حتى يصبح حاضراً، وتقريب البعيد النائي حتى يصبح قريباً دانياً .

ولما القرآن إلى التشبيه يصور به فناء هذا العالم الذي تراه مزدهراً أمامنا عامراً بألوان الجمال، فيخيل إلينا استمراره وخلوده فيوجد القرآن في الزرع يرتوى من الماء فيصبح بهيجاً نضراً، يصبغ رائيه، ولكنه لا يلبث أن يبذل ويصفر ويصبح هشياً تذروه الرياح، يجد القرآن في ذلك شها لهذه الحياة الدنيا، ولقد أوجز القرآن مرة في هذا التشبيه وأظن، ليستقر مناه في النفوس ويحدث أثره في القلب، فقال مرة : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نيسات الأرض فأصبح هشياً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرًا . » . وقال مرة أخرى : « اعملوا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم بهيج فنراه مصفراً ثم يكون حطامًا . » . وقال مرة ثالثة « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات

وقد تأتي الكفاف وسيلة للإيضاح ، وتقوم هي وما بعدها  
مقام المثال للقاعدة ، وغير خاف ما للمثل بضرب من التأثير  
والإقناع ؛ ومن ذلك قوله تعالى : « إن الذين كفروا لن تنفي  
عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار ،  
كذاب آكل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله  
بذنوبهم والله شديد العقاب » ، فجاء بآل فرعون مثلا لأولئك  
الذين لن تنفي عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . ومن كاف  
الإيضاح قوله سبحانه : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار »  
وقوله : « وإذ نخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فنفخ فيه ،  
فتكون طيرا بإذنى »

أحمد أحمد بدوي

مدرس بكلية دار العلوم

## فنيح الأدب العربي

للاستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا  
العصر بأسلوب قوى ، ومستيعاب موجز وتحليل مفصل  
واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

طبع اثني عشرة مرة في ٥٢٥ صفحة  
وتمتد أربعون قرشا عدا أجرة البريد

يمثل لك هذا القلب الخالي من الشعور الإنساني النبيل ، والمطاف  
على أبناء جنسه عطفا ينبع من شعور حي صادق ، ولكن الصدقة  
تغليه بثوب رقيق حتى يخاله الرائي ، قلبا ينبض بحب الإنسانية  
ويبنى عليه كبار الآمال فيما سوف يقدمه المجتمع من خير ،  
ولكن الرياء والمان والأذى لا ثابت أن تزيلا هذا النشاء الرقيق ،  
فيظهر القلب على حقيقته قاسيا سلبا لا يلين .

- ٦ -

وتأتي الكفاف في القرآن أحيانا لا لهذا التشبيه الفني الخالص ،  
بل لإيقاع التساوي بين أمرين ، ومن أمثلة هذا الباب قوله تعالى  
« وعد الله المنافقين والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هي حسبهم  
ولمنهم الله ، ولهم عذاب مقيم ، كالذين من قبلكم ، كانوا أشد  
منكم قوة ، وأكثر أموالا وأولادا ، فاستمتموا بمخلاقهم كما استمتمتم  
بمخلاقكم . كما استمتع الذين من قبلكم بمخلاتهم ، وخضتم كالذي  
خاضوا ، أولئك جيبط أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك هم  
الخاسرون » وقوله تعالى : « إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا  
عليكم ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فمعى فرعون الرسول ،  
فأخذناه أخذنا ويلا » ؛ فهو بمقد موازنة بينهم وبين من سبقهم ،  
ويبين لهم الوجوه التي يتفقون فيها معهم ، ولا ينسى أن يذكر  
ما أصاب سابقهم . وإلى هنا يقف تاركا لهم أن يصلوا بأنفسهم  
إلى ما ينتظرون من المواقب ، وإنما لطريقة مؤثرة في النفس حقا  
أن تضع لها شيئا ، وتركها تصل بنفسها إلى النتيجة في سكينه  
وهده ، لا أن تقذف بها في وجهها ، فربما تتمرد وتثور .

ومن كاف التساوي أيضا قوله تعالى « إنا أوحينا إليك كما  
أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ، وقد يلح في ذلك الرغبة  
في إزالة الغرابة عن نفوس السامعين ، واستبعادهم نزول الوحي  
على الرسول ، فالقرآن يقرنه بمن لا يشكون في رسالته ، ليأمنوا  
بدهوة النبي ؛ وقد يكون في هذا التساوي مثار للنهكم ، كما في  
قوله تعالى « ولقد جتتهونا فرادى ، كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم  
ما خولناكم وراء ظهوركم » ؛ أو مثار للاستنكار ، كما في قوله  
« ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أؤذى في الله جمل فتنة  
الناس ككذاب الله » فسر الاستنكار كما ترى هو تسوية عذاب  
الناس بمذاب الله .